شعرية اشتغال العجائبي في قصص الأطفال

قصة"أليس في بلاد العجائب"

La poétique du fonctionnement du merveilleux dans les récits destinés aux enfants. Le cas du récit "Alice au pays des merveilles"

د.غيبوب باية

جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف(الجزائر)

Résumé:

Il ne fait aucun doute que le principe du merveilleux et du fantastique, en général, ou le surnaturel constitue non seulement un fondement et un thème central dans les récits destinés aux enfants, mais aussi un espace plus large que peut contenir les mots. Et si le merveilleux, dans la littérature des adultes est associé à quelques textes narratifs seulement, il est par contre, dans la littérature destinée aux enfants, le principe de l'écriture même, car il représente son espace. Il n'y a pas d'écriture en dehors du merveilleux et il n'y a de séduction que celle du fantastique qui représente un attrait pour l'enfant qui est hanté par tout ce qui est merveilleux et humanisé.

Si le fantastique dans la littérature destinée aux adultes pousse le lecteur à hésiter à interpréter le merveilleux et par là même, à lui trouver une signification objective, par contre, l'enfant succombe au charme du merveilleux et se laisse aller à des significations inconnues de lui, irrationnelles. L'enfant sait que le chat ne parle pas et que l'oiseau ne raconte pas et ne rit pas et malgré cela, la séduction du merveilleux le plonge dans la lecture ou l'observation, sans oublier la technologie numérique et en particulier celle relative à la haute définition.

Le récit « Alice au pays des merveilles » présente cet amusement enfantin qui obsède tout adulte, malgré son âge. Lewis Carroll a réussi à transformer son amusement intérieur en une création drolatique superbe et il transforme ses jeux en une matière qui bâtit les petits esprits et les affine, selon sa vision d'avenir.

لاشك في أنّ مبدأ العجائبي و"الفانتاستيكي"عموما أوفوق طبيعي يشكل مبدأ أساسيا وتيمة محورية في قصص الأطفال،بل نراها فضاء أرحب وأشمل مما يمكن أن تستوعبه الكلمات.وإذا كان العجائبي في أدب الراشدين أو الكبار يرتبط ببعض النصوص السردية والحكائية فقط، فهوفي قصص الأطفال يمثل مبدأ الكتابة ويَسِمُها، وهو بذلك يشكل فضاءها، فلا كتابة خارج العجائبي،ولاغواية غير غواية "الفانتاستيكي" الذي يعد فتنة القارئ الطفل المسكون بكل ماهو غرائبي ومؤنسن.ففي عالم الطفل تذوب الفوارق والخصائص مابين الإنسان والحيوان والجماد.فالجامع بينها هو قدرتها العجائبية على إحداث فتنة المحكي وخرق المألوف واليومي والمتوقع...وإذا كان العجائبي في أدب الكبار يدفع القارئ إلى التردد في تفسيرالعجائبي ومن ثمة البحث عن دلالة موضوعية له،فإنّ الطفل يستسلم لسحر العجائبي وينقاد لدلالته غير المألوفة لديه،مأخوذا بسحر المعنى المخالف للمنطق،الخارق لسلطان العقل.من ذلك أنّ الطفل يعرف أنّ القط لايتكلم وأنّ الطير لايحكي أو يضحك،ومع ذلك ينغمس في غواية مايقرأ أو مايشاهد. ولايخفى على أحد دور التكنولوجيا الرقمية ــ وخاصة ماتعلق بنظام الجودة العاليةHDــ في صناعة العجائبي في قصص الرسوم المتحركة،التي تجمع بين الصورة المتحركة والصوت والفضاء المكاني أو الطبيعي السابح في أرقى ما توصلت إليه التكنولوجيا الرقمية، من برامج ضابطة وبأنظمة رقمية عالية الجودة، قادرة على صناعة فتنة المحكي والشاعري وعلى صناعة النص الرقمي

المكتوب والمنقول عن الحاسوب أو المشاهد المسموع المُحَوْسب .كل ذلك ضمن فضاء لوني غاية في الجودة والإدهاش.

ــ فما هو العجائبي أو 'الفانتاستيكي عند "تودوروف" أو"شعيب حليفي"؟وكيف يشتغل العجائبي ضمن قصة الطفل وخاصة الأجنبية المترجمة؟وهل العجائبي قادر على نقل القيم التربوية مرفوقة بمبدإ المتعة والتسلية؟

ــ ماالقيمة الجمالية للعجائبي في "الصورة العجائبية" :الورقية والرقمية؟

وهل يمكن أن يعوّل على العجائبي بصفته أسلوبا/ تقنية ،في بناء شخصية الطفل وتنمية مدركاته الفكرية والعقلية؟...

"**أليس في بلاد العجائب**"[1] هي رواية للكاتب الإنجليزي"لويس كارول" نشرت لأول مرة عام 1865.تحكي قصة الفتاة الصغيرة"أليس" التي سقطت في جحرأرنب لتجد نفسها في عالم فانتازي تسكنه كائنات عجيبة ،هو عالم بلاد العجائب ،هذا الاسم الذي سيتحول في ما بعد إلى كرة ثلج ثقافية تجتاح اللغات العالمية وثقافات الشعوب المختلفة عبر التاريخ.بل قد أصبحت إيقونة لمظاهر حضارية وحتى تكنولوجية سمتها المشتركة الفانتازي والعجيب،وجنوح المخيال المبدع الذي لايعترف بمنطق الواقع .بل هو يصنع ويُشكّل من المتخيل العجائبي واقعا وحياة.

درجة الصفر لقصة"أليس".

تتميزقصة "أليس في بلاد العجائب" بأنها قصة فكرتها النواة الأولى واقعية، بحيث يقول الدارسون أنّه قبل نشرها بثلاث سنوات كان المبجّل "تشارلزلوتويدج دوجسون"والذي صار يعرف فيما بعد بـ"لويس كارول"والمبجل"روبتسون داكوروث"يقومان برحلة في قارب في نهر التايمزومعهما ثلاث فتيات هنّ بنات"هنري ليديل"نائب رئيس جامعة أكسفورد ومدير مدرسة"ويستمينسر"والفتيات،هنّ"لورينا"(13عاما)،و"أليس"(8سنوات)،و"إيديث"(8سنوات)،وخلال هذه الرحلة حكى "لويس كارول"للفتيات قصة عن بنت أسمها "أليس" كانت تشعر بالملل فخرجت للبحث عن مغامرة.أعجبت الفتيات كثيرا بالقصة وعندها طلبت "أليس" من "كارول" أن يقوم بكتابة تلك القصة لها.

واستغرق "كارول" سنتين لتنفيذ هذا الطلب،وقد وسمها في بداية الأمر"مغامرات أليس تحت الأرض"وبعد عام استغرقه في التنقيح والتعديل عنونها بـ"مغامرات أليس في بلاد العجائب"وطبع منها ألفان نسخة مع رسوم لـ"جون تينيل" ولكن "تينيل" رفض الطبعة بسبب طبعها الرديء، وبعد إتلاف نسخ الطبعة بقيّ منها 23 نسخة فقط.وفيما بعد بعيت نسخة واحدة منها عام 1998 بمليون ونصف المليون دولار.وبعد عام تمت طباعة نسخة أخرى في ديسمبر من نفس العام ولكنها كانت تحمل رقم السنة التالية1866.وقد بيعت نسخ الطبعة كاملة وفي ظرف قصير،وحازت على شعبية واسعة، كانت الملكة"فيكتوريا" من أوائل القراء المعجبين بهذه القصة.واستمرت المطابع عبر العالم في طبعها والتفنن في إخراجها ،فقد طبعت أكثر من مائة مرة.كما ترجمت إلى أكثر من 125 لغة.

وبعد قصة "أليس في بلاد العجائب" كتب "كارول"قصة أخرى"عبر المرآة..وماذاوجدت أليس هناك؟)عام 1871.[2]

عالمية التعابير اللغوية: تكمن عالمية اللغة في قصة "أسطورة" أليس في بلاد العجائب" في ظاهرة الاستعمالات العالمية لبعض الألفاظ الواردة في خطاب قصة "أليس" والتي تحولت عبر الأزمنة إلى مصطلحات علمية ومعرفية وهو يبرهن بشكل قاطع على تحول هذه القصة من خطاب قومي ومحلي إلى أسطورة، حيث تحول النموذج البدئي أو مايسمى النماذج العليا أو الأنماط الأولية[3] إلى متاعل نصي يشكل مرجعية قاعدية لنصوص لاحقة،من ذلك تعبير"أرض العجائب"

---

[1] ــ لويس كارول:أليس في بلاد العجائب و أليس في المرآة. تر: سهام بنت ستية وعبدالسلام.مراجعة:سارة بنت نهاد وعناني. دار التنوير. القاهرة،بيروت،تونس ط1. 2013

[2] ــ ينظر.لويس كارول .المصدر السابق.ص : 362، 365

[3] -http://shabab-e3lam.alafdal.net

wonderland صار يطلق على أي مكان خيالي أويوصف به المكان الواقعي الذي يتمتع بجمال استثنائي.وهناك أيضا"تعبير النزول إلى جحرالأرنب "Down the rabbit hole" الذي صار يعني الآن خوض المغامرة،ويستخدم هذا المصطلح أيضا في ألعاب الكمبيوتر للإشارة إلى عنصريؤدي استخدامه باللاعب إلى دخول عالم اللعبة،أيضا يستخدم نفس المصطلح بين المدمنين للدلالة على بدء التعاطي والدخول في عالم الأوهام الذي تخلقه المخدرات،وفي عالم الكمبيوتر هناك دائما الملف النصي الذي يحمل اسم "إقرأني"ـ read me"وهذا أيضا اقتباس من الزجاجة المكتوب عليها"اشربني"،والكعكة المكتوب عليها"كليني" في عالم "أليس" "[4].

وهنا فقط يمكن الإشارة إلى العناصر السردية وتقنياتها المتضافرة وهي تشتغل ضمن متن الخطاب السردي لقصة "أليس في بلاد العجائب"، فهناك القيمة الفكرية والعلمية المتضمَّنة في نسيج القصة، منها؛المواعظ الأخلاقية والآراء السياسية،وخاصة في قصة "عبرالمرآة" وهي العمل الثاني لـ"لويس كارول"والتي تحتوي على الكثير من الألغاز الحسابية ،والإشارات الدينية.يضاف إلى هذه التضمينات المعرفية هناك تقنية سردية تؤطر المتن القصصي وتؤسس لنسيج أحداثه المتلاحقة.فالواقعي يمثله الحدث الإبتدائي:"كانت أليس تجلس مع أختها "الكبرى التي كانت تقرأ كتابا في التاريخ وأليس منشغلة عنها،منصرفة بخيالها المجنح حيث عالمها العجائبي.

لأنّ الكتاب كان يحكي أحداثا تاريخية جافة خالية من عنصر الخيال".يمثل هذا الحدث عتبة فاصلة، ما بين الواقعي واللاواقعي،أو ما يسمى فوق طبيعي،الذي هو بشكل ما عالم "أليس" التواقة إلى ولوجه تخييلا وحلما.ثم يأتي الحدث الثاني الذي يمثل العتبة الإبتدائية وبوابة المتخيل العجائبي أو الأسطوري ،وتسمى هذه التقنية السردية "النقلات أوالقفزة النوعية"[5]:ويعرفها "ماريو يوسا بارغاس"بأنها:"هي كل تبدل تتعرض له أي واحدة من وجهات النظر(الرؤى)ولهذا من الممكن أن تكون هناك نقلات مكانية أوزمانية أو في مستوى الواقع..."[6] ومن هذا فإن ظهور الأرنب الأبيض الذي يحمل ساعة جيب كبيرة وهو قلقا خائفا أن يفوته الوقت، يمثل ظهوره نقلة انفتاح الرؤية العجائبية على كائناتها الغريبة المؤنسنة،واللافت هنا هو مرونة الحدث السردي العجائبي الذي يمثل هذه النقلة دون الانتباه إلى هذا التحول الحاصل ما بين عالمين ؛واقعي/عجائبي.وهذه التقنية المرنة إذا ما أحسن استغلالها فإنها توهم بكلية تسلسل زمني (كرونولوجي).هذا إذا قسنا فاعلية هذه التقنية على القدرات الإدراكية والوعي الراشد للقارئ الراشد.فكيف يكون تلقي الطفل لمثل هذه التقنية وخاصة إذا حقق فعل التلقي مشاهدة أو لحظة فرجة كما هو حاصل مع الرسوم المتحركة وبالنظام الرقمي العالي الجودة HD؟ وشريط "أليس في بلاد العجائب" سواء المعروض على شاشة التلفاز أو الانترنيت يؤكد فكرتنا هاته،لاشك في أنّ القارئ والقارئ الطفل بالذات حين يتلقاها قراءة أو مشاهدة"يبقى منجذبا ومأخوذا بما ترويه إلى حد ينسى معه الطريقة التي تروى له بها،ويتملكه الإحساس بأنّ تلك الرواية تخلو من التقنية...وبأنها الحياة نفسها متجلية من خلال بعض الشخصيات والمشاهد والوقائع التي يبدو له أنها ليست أقل من الواقع المجسد،من الحياة المقروءة..إلى حدّ لايمكن معه لأيّ قارئ أن يلمح وجودها،لأنه حين يستغرق بسحر تلك الصنعة لايحس بأنه يقرأ وإنما يعيش تخييلا تمكن من الحلول محل الحياة."[7]

وهنا فقط يمكننا تخيل درجة الإيهام الحاصلة لدى الطفل المتلقي لرواية "أليس في بلاد العجائب" ومع لحظة تلقيه الحدث الأولي الذي وسمناه بالنقلة أو القفزة النوعية.وهو ظهور الأرنب الأبيض.لاشك في أنّ إدراك الطفل يتعامل مع

[4] -http://shabab-e3lam.alafdal.net

[5] ـ ماريو بارغاس يوسا:رسائل إلى روائي شاب.تر:صالح علماني.دار المدى.للثقافة والنشر.ط2/2010 ص:87

[6] ـ المرجع السابق. ص:87

[7] ـ ماريو بارغاس يوسا:رسائل إلى روائي شاب .المرجع السابق.ص:86

تسلسل الأحداث على أنها تشكل نسيجا متكاملا لبنية الزمن والمكان معا،وهذا يكمن في دور اشتغال البنيـــة العجائبيـــة ومدى فاعليتها السردية.

ثم تتلاحق الأحداث العجائبية ويكون الجحر الذي تدخله "أليس" منفذا حاسما إلى الفضاء العجائبي،والذي يستغرقه كامل الحكي وهو في الآن المتن العجائبي الأسطوري الذي يقع بين فضـــاءين متجانســـين يمـــثلان الـــواقعي؛ المقـــدة والخاتمة.واللذان يمثلان أيضا لحظة سكون العقل وانتفاء التخييل،في حين يمثل فضاء العجائبي نشاط التخييـــل وتهـــيج مخيال الرواي والطفل المتلقي على السواء، وهوما يحتاجه الطفل ويندمج فيه بسهولة وسحر. وهـــذا عكـــس الفضـــاء العجائبي في السرود الموجهة للكبار؛لأنّ"العجائبي المتمثل في الظهورات والهواجس والإستيهامات والصور والمواقـــف والأحداث فوق الطبيعية يحتاج في تجليه إلى أمكنة،هذه التي يجب أن تتلاءم مع طبيعته المرعبة أو المعجزة والمثيـــرة للتساؤل أو التردد، هذه الأمكنة التي خلقتها لغة الراوي لتصبح مسرحا للتحولات ولأعطـــاب الإدراك ،بحيـــث تـــزول الحواجز بين الزمان والمكان ويندغم كل شيء في تلك الطبيعة الهذيانية للمشاهدات."[8]

ثم يأتي الحدث الأساس الذي هو بمثابة الإعلان عن بداية المغـــامرة العجائبيـــة وهـــو تعبيـــر "النـــزول إلـــى جحرالأرنب ــDown the rabbit hole " والذي صار من عبارات الكمومبيوتر ويعني إيذانا ببداية اللعبة.

وفي السياق اللغوي للقصة يشيرهذا إلى بداية الحكي العجائبي الأسطوري ،فبمجرد دخول أليس الى الجحر تجـــد نفسها في عالم سحري غرائبي هذا بالنسبة لأليس، أما بالنسبة للمتلقي الطفل فإنه يعني لحظة انسرابه تخييلا وانســـجاما مع أحداث القصة مثله مثل البطلة"أليس" التي تجد نفسها طرفا في لعبة الفانتازي الذي تختلط فيه عناصـــر ومكونـــات الفضاء العجائبي من مخلوقات ؛نباتات وأشياء وجمادات وبشر،أي "أليس" وقد تساوت وزالت الفروق الخلقية الطبيعيـــة بين هذه الكائنات،مكتسبة صفة مشتركة وهي الأنسنة؛ من نطق وضحك وبكاء وعواطف ...إلخ.

"فالعجائبي يمكن تعريفه بإرجاعه إلى العقلية البدائية ،كما يقول "ليفي برول l.broul "،وحسب "جلبيـــر دوران ــG . Durand" هو البحث عن طريقة نحو النموذج الأصل ...يرسل الصور من المجهول[9] ،ويتواجد بشكل كبير فـــي أدب الطفل، حيث يعبر عن عوالم مملوءة بمجموعة قيم متنوعة شأن الحكاية الشعبية،والسحرية أيضا"[10].

ومع دخول أليس إلى الغرفة الفارغة إلامن زجاجة وطاولة صغيرة يزداد قلقها وتتلاحق أسئلتها الفضولية وتزداد معها رغبتها في مواصلة مغامراتها.تقول القصة:"ومع أنّ أليس فضولية انحنت وراحت تنظرعبر ثقب الباب،فشـــاهدت حديقة رائعة كلها أشجار وجداول وجسور صغيرة جدا..."[11]

مع هذه المواقف الملغّزة يأتي دور لعبة اللغة لتخفف من توتر "أليس" وتجيب عن أسئلتها الفضولية،فترى ألـــيس قنينة مكتوب عليها"**اشربيني**"فشربت منها "فراحت تصغر وتصـــغر إلـــى أن أصـــبح بإمكانهـــا المـــرور مـــن البـــاب الصغير.ولكن المفتاح مازال فوق الطاولة كيف ستصل إليه الآن وقد أصبحت صغيرة؟"[12]

---

[8] ــ حسين علام :العجائبي في الأدب من منظور شعرية السرد.منشورات الإختلاف .ط1/2010.ص: 160

نقلا عن شعيب حليفي: شعرية الرواية الفانتاستيكية.المجلس الأعلى للثقافة ــ 1997. ص:53

ــ 7 /8 نقلا عن شعيب حليفي:

[9] -Jean michel.l'imaginaire de l'enfant.les contes.france ed.f.nathun.1976 p.70

[10] - Bruno Bettelheim.la psychanalyse des contes des fees.ed.laffont 1976.

نقلا عن شعيب حليفي: شعرية الرواية الفانتاستيكية.المجلس الأعلى للثقافة ــ 1997. ص:53

[11] ــ أليس في بلاد العجائب. دار البدر للطباعة والنشر والتوزيع. ص:3

[12] ــ أليس في بلاد العجائب .المصدر نفسه :ص:4

ثم رأت تحت الطاولة كعكة مكتوب عليها"**كليني**"ولما أكلت منها "أليس" راحت تكبر وتكبرإلى حدٍّ أنها لم تستطع رؤية قدميها.وعندها ازداد هلعها وراحت تبكي حتى غمرت دموعها الغرفة بكاملها.وتمضي "أليس" في الانتقال من لغز إلى آخر أشد تعقيدا وإغماضا.كحدث المروحة التي تأخذها من الفأر الأبيض وتروح بها على نفسها فيتغير حجمها وهكذا،وعلى مثل هذه الأحداث العجائبية تمضي أليس مدفوعة بفضولها الذي لايقاوم لمعرفة حل تلك الحلقات الملغزة الشبيهة بالأحداث الأسطورية التي تظهر إرادة البطل في مواجهة قدره .

إنّ تغير حجم أليس لم يكن حدثا عفويا،إنما جاء نتيجة تقنية عالية الحبكة،ونتيجة تدبر فني سردي أراد "لويس كارول" به تقزيم "أليس" ليدمجها في عالم عجائبي يعجُّ بمخلوقات صغيرة ومجهرية ،ومن خلال هذه التقنية السردية يكشف الكاتب"لويس كارول" عن درجة التخييل لديه ،طبعا تخييل الأطفال بعد أن تخلى عن تخييله هو الكاتب الإنسان الراشد.يقول الناقد "هيو وولوفبول Hugh walpole" في مقدمته لكتاب "هيولوفتنج" Hugh Loftingالموسوم بـ"قصة الدكتوردوليتل the story of Dr.Dolittle"،"...أنا واثق أن الكتابة للأطفال يمكن القيام بها فقط من قبل شخص لديه الكثير من الطفولة في نظرته وأحاسيسه...فخيال الكاتب لابد أن يكون خيال طفل،ومع ذلك يمتلك تماسك الكبار..."[13]

تمضي الأحداث العجائبية وهي تصنع إغماضها الفني ،وهي تجلي شعرية المحكي ،بعيدا عن صرامة الإدراك العقلي الذي هو خاصية المنطق الذي تقاس به ماهية الأشياء وكينونتها عند الكبار،ذلك أنّ الطفل وهو يتلقى مثل هذه المحكيات والسرود العجائبية يتلقاها بمشاعره الطفولية العفوية ،مشاعر مجردة من أي معيار عقلي أو فكري أو حتى منطق يعرض عليه عناصر ما يتلقاه مشاهدة أو قراءة. إنه في هذه الأحوال يكون مشغولا بمتعة المحكي وفتنة المتخيل فوق طبيعي .فلا يملك مخزونا معرفيا مسبقا يعرض عليه ما يتلقاه ،ولهذا نراه سريع الانسجام والاندماج بروحه في المشاهد المعروضة المتلاحقة ضمن سلسلة الحبكة.وكل ذلك أيضا بفعل سحر الإيهام الذي هو خاصية فنية إبداعية.وبهذه التقنية السردية العجائبية تكون "أليس "قد انتقلت تخييلا إلى كائن غيرطبيعي يعلم لغة باقي الكائنات الأكثر ضآلة واكتسبت خصائص مغايرة .أعتقد أنّ "لويس كارول" يرمي من رواء دفع "أليس" داخل هذه المتاهات الملغزة إلى أن تمارس رغباتها الطفولية ومن ثمة اكتشاف هويتها من خلال عالم لاوجود له إلا في مخيلتها والتي هي في شرعية السرد مخيلة الكاتب الفعلي "لويس كارول".يقول "برونو بتلهيم":"القصص الخيالية على خلاف أي نوع آخر من الأدب ،توجه الطفل إلى اكتشاف هويته ودوافعه"[14]

والتفتت "أليس" إلى الوراء فرأت الأرنب الأبيض يلهث وسمعته يتمتم"ستغضب الملكة مني ،وستأمر بإعدامي"، حاولت "أليس" اللحاق به لكن سرعان ما فقدت أثره..وراحت تركض وتركض إلى أن وصلت إلى الغابة، ولأنها كانت صغيرة الحجم جلست في ظل فطر تستريح.

من أنت؟ سألها مخلوق عجيب كان يجلس على قبعة الفطر.أتعرفون من يكون هذا المخلوق؟دودة فراش تدخّن سيجارة وتنفخ الدخان على شكل حلقات.لاأعرف بم أجيب قالت أليس حينا أجد نفسي صغيرة الحجم وحينا آخر كبيرة الحجم...لم أعد أفهم.فأجاتها دودة الفراش قائلة: إنّ ما يحصل معك أمر طبيعي في بلادنا هذه."[15]

يعمد"لويس كارول" هنا وفي مثل هذه الإشارات السردية إلى تفسير ماغمض على "أليس" بصفتها البطلة المبئرة لجميع الظهورات:"إنّ ما يحصل معك أمر طبيعي في بلادنا هذه" وهذا تفسير يخفف من تردد وحيرة الطفل المتلقي،إنه إجابة عن سؤال افتراضي من القارئ الطفل.وهناك كشف سردي آخر يمثل ما يمكن وسمه "الوعي داخل اللاوعي" ذلك

---

[13]ـــ بيتر هنت:مقدمة في أدب الطفل .تر:إيزابيل كمال،مراجعة: طلعت الشّايب. المركز القومي للترجمة القاهرة.ط1. 2009.ص:31

[14]ـــ جوان آيكن"الحائزة على جائزة لويس كارول": مهارات الكتابة للأطفال.تر: يعقوب الشاروني ،سالي رءوف راجي.المركز القومي للترجمة القاهرة.ط1. 2012.ص: 172

[15]ـــ أليس في بلاد العجائب.دار البدر للطباعة والنشروالتوزيع .ص:7

أنّ "أليس " كانت تحلم،والحلم يندرج في اللاوعي.وهو مجليه قول الراوي العليم بكل شيء: **"وصاحت أليس: تقدموا فأنا لاأخاف الأوراق.لايستطيع الملك أو الملكة إيذائي لأنهما من الورق"**

ولكن ماذا أراد "لويس كارول" من الرؤية العجائبية والتي يمكننا وصفها بشعرية فوضى اللامعقول؟.فكل ما يقرأ يبدو عبثيا لايقدم فائدة ترجى للطفل الباحث بإصرار عن المعرفة خارج معقولية واقع لايرى فيه الطفل مايشبع فضوله المتنامي،ويحقق له بعض أحلامه الصغيرة،والتي لايتسع لها واقعه اليومي المحدود معرفيا.يرى الناقد"ت.ي. أبتر":"أن قصة "أليس في أرض العجائب"تضع التصورات المألوفة على محك وتسخر منها،تماما كما في قصة"من خلال المرآة" التي تطرح صورا مقلوبة ذكية ومذهلة (وليس مجرد رفض) للتصورات الإعتيادية حول الطريقة التي يعمل العالم بمقتضاها"[16]

وبناء على هذا الطرح هل يمكننا الاعتقاد أن منطق الأشياء وحقيقتها لاترى إلاّ بالوضع المقلوب؟ وهذا اعتقاد يمكن الاستئناس إليه. تقول إحدى الإجابات:"إنّ كتب الأطفال تعكس العالم كما نتمنى أن يكون ،وإنها تقوم برد فعل على عالم الكبار.تماما مثلما حدث بعد صدمة الحرب العالمية الثانية،إذ تحولت كتب الأطفال إلى الفانتازيا."[17]

لقد أدرك"لويس كارول" بطبيعة روحه الميالة لنزق الطفولة ومرحها،وأن روح الكبار مشوشة دوما وبسبب ذلك الخلل المزمن فيها فإنها محرومة من لحظات الفرح.لقد"أدرك كارول كذلك تشوش الكبار وتغير الحجم والهوية واقترب من موضوعات الذات والموت والتفرقة الجنسية...فإنّ روحه المرحة كانت نوعا من الإزدواجية العمرية بشكل استثنائي...تماما،ذلك أن بريق الذهن المعقد المرتبك يطرح ذاته على الصغار"[18]

تقدم قصة "أليس في بلاد العجائب" ذلك المرح الطفولي الذي يسكن كل كبير مهما امتد به العمر.وقد وفق "لويس كارول" في إبداع مرحه الذي يسكنه.لكنه مرح ولعب العبقري المبدع،الذي يحول ألعابه إلى مادة تبني العقول الصغيرة وتصقلها حسب إرادته ورؤيته المستقبلية.إلاّ أنّ ثمة واحدة من الصعوبات المبدئية"ضمن هذا المفهوم العام،هي معرفة ماذا يوجد في الكبار من طفولة حتى يستطيعون التواصل مع عالم الطفولة ؟وماذا يوجد في الطفل مما عند الكبير حتى يتقبّل ما يقدم له من الكبار؟وأيضا معرفة فيما إذا كان الكبار على حق دائما ولايخدمون أحيانا أفكارا مسبقة أكثر مما هي أخلاقية"[19]

قد يقول قائل محتجا على الكتابات الأسطورية والسحرية والخرافات التي توجه إلى الطفل ،ما الفائدة المعرفية والتربوية التي تتضمنها مثل هذه القصص.مثل قصة "أليس في بلاد العجائب وأليس في المرآة"؟ يرى علماء النفس.أنّ ما تتضمنه هذه القصص من مخاوف حقيقة" توجد في اللاوعي،وأنّ هذه القصص تلعب دورا مهما أدركه علماء النفس والتربويون لأنها تخرج هذه المخاوف إلى النوروتقدم لها الحلول...فهي توجه الطفل إلى اكتشاف هويته ودوافعه"[20]

إنّ ماتقدمه قصة "أليس في بلاد العجائب" يمكنه أن يسهم بشكل كبير في تعديل ميزاج الطفل ويغير رؤيته لنفسه وللعالم.وأن تجعله يتقبل بعض المشاهد المخيفة وأن يخوض معارك في لعبة سيكون هو الرابح بلا شك فيها.بل قد يتحول مفهوم المعركة عنده إلى مجرد لعبة تساعده على إظهار قدراته العقلية والنفسية وحتى مهاراته الضعيفة.تماما كما فعلت الطفلة الصغيرة "أليس" التي ولا شك سوف يعجب بها الطفل القارئ وبشجاعتها وهي تواجه الملك والملكة وجنودهما الورقية.بالرغم من إشهار الجنود سيوفهم الورقية في وجهها.وسوف يعجب الطفل القارئ وهو يرى "أليس"

---

[16]ـــ ت.ي. أبتر.أدب الفنتازيا مدخل إلى الواقع.تر:صبار سعدون السعدون.دار المأمون للترجمة والنشربغداد.1989.ص:218

[17]ـــ بيتر هنت: مقدمة في أدب الطفل.تر:إيزابيل كمال.مراجعة:طلعت الشايب.المركز القومي للترجمة.ط:1/ 2009.ص:153

[18]ـــ بيتر هنت: مقدمة في أدب الطفل. ص:117

[19]ـــ سيسيليا ميرايل.مشكلات الأدب الطفلي.تر:مها عرنوق.دراسات نقدية عالمية.منشورات وزارة الثقافة. سورية.دمشق.1997.ص:33

[20]ـــ جوان آيكن"الحائزة على جائزة لويس كارول": مهارات الكتابة للأطفال.مرجع سابق .ص:172

تضحك مستهزئة بجنود ورق الكوتشينة الواهية.بل راحت تصرخ فيهم ضاحكة: **"وصاحت أليس: تقدموا فأنا لاأخاف الأوراق.لايستطيع الملك أو الملكة إيذائي لأنهما من الورق".**

تكشف قصة"أليس في بلاد العجائب" عن فكرة أسطورة مفادها أن كل الكائنات والأشياء لها روحها ولها حياتها الخاصة.وعالمها المغلق.بل هي أمم سواء كانت مرئية وضئيلة،أومجهرية خفية لاتراها العين المبصرة.والغريب أنّ الاعتقاد نجده قويا وراسخا في عقلية الطفل أكثر من الراشد.فالطفل حين يقرأ أويشاهد "أليس" شريطا متحركا بالصوت والصورة والفضاء الطبيعي الذي تتحرك فيه "أليس" لايشك في حقيقته لحظة بل لايفكر في حقيقته أو عدمها.بل لاينتبه لمثل هذا الإشكال،ولايريد التنبه إليه.كل ما يركز عليه هو مواصلة متعة التلقي وإشباع عنصر الفانتازي الكامن في نفسه.

فالإعتقاد بأممية الكائنات أساسي ومركزي في الفكر الإسلامي.فقط ليس بالمفهوم الخرافي أو الأسطوري الذي هو مبدأ فكري وثقافي في الثقافة الغربية.بل أساسي في المعتقد الإسلامي

يقول تعالى: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) [الأنعام: 38].

ومن هذا وجب تصويب قراءة الطفل المسلم وتوجيهه الوجهة الصحيحة،التي لاتخدش عقيدته،أو تسبب لديه ترددا أو تشويشا معرفيا قد تكون عاقبته وخيمة فيما بعد.

يقول "بياجيه":"إنّ الأطفال يؤمنون بحيوية الأشياء حتى يصلوا إلى مرحلة البلوغ،فهم يؤمنون أنّ الأشياء غير الحية لها أرواح وطباع ،فالشمس تشرق علينا لأنها تحبنا والصخرة تتدحرج كي تتسبب في سقوطنا،وأنا أشك في أنّ هذه المعتقدات تدوم فترة طويلة،فالأطفال اليوم ينمون بسرعة مخيفة،يالهم من مساكين فقد أقحم عليهم البلوغ قبل أن يكون لهم فرصة كافية ليستمتعوا بالطفولة"[21]

ولكن ما الذي يمكن للطفل المتلقي لقصص الأساطير والجنيات والخرافة أن يبنيّ قدراته المعرفية والسيكولوجية في زمننا هذا؟هناك من يرى أن القصة ذات"الطابع الأسطوري قد تساعد هؤلاء الأطفال عن طريق تقديم ثلاثة مكونات أساسية:الطمأنينة،والعواطف ،والغموض.لاشك أنّ هذا هو السبب وراء الشعبية الكبيرة لكتب الخيال "[22]

لاشك في أنّ الطفل المتلقي لقصة "آليس في بلاد العجائب" سيجد في غموض الأحداث وتلغيزها متعة الغامض الذي يقدم الأسئلة التي لايجد الطفل حاجة إلى الإجابة عليها ،بل لايفكر إطلاقا فيها،إنه يتلقاها بصفتها إمتاعا ومؤانسة لروحه التواقة لكل ماهو غامض ومثير.ومن ثمة تشكل الأحداث الغامضة الملغزة لعبة وتسلية لغوية.إنه اللعب مع اللغة الكرنفالية .

فالمسرود بكل تأثيثاته المحكية يشتغل بشكل تضافري على إنتاج المضحك والهزلي وقد تحرر نهائيا من سطوة المنطقي والمعتاد والنمطي،الذي هو شأن الحياة السوية الراشدة.ومن هذا تظل قصدية الكتابة للطفل هي تربية الذوق لديه ودفعه لاكتشاف كل ماهو جميل في شخصيته وفي عناصر الطبيعة من حوله وتلوين مايبتكره خياله المجنح، صابغا عليه لطافة نفسه وشفافية روحه الطفولية ،إن "تغيير الذوق هدف أساسيّ في مقصدية الكتابة للطفل،وغاية يهدف إلى تحقيقها الكاتب حين يتوجه للطفل الذي يرى فيه طرفا هاما في فعل الكتابة ،آملا في أن تسهم قصته في نضج عقل

[21]ــ جوان آيكن: مهارات الكتابة للأطفال المرجع السابق.ص:174

[22]ــ جوان آيكن:مهارت الكتابة للأطفال. ص: 175

الطفل وتساعده في الآن على فهم الحياة فهما صحيحا ليشعر أنه رعاية الكبار ،ويكون ذلك عامل تلاحم وجداني وروحي في نسيج المجتمع"[23]

ولكن كيف يمكن للقصص الأسطورية والعجائبية في زمننا هذا الذي يتسم باليقيني والعلمي، زمن اختفى فيه كل غموض ولم يعد هناك مكان غامض وملتبس يمكن للجنيات والعفاريت أن تسكنه من ثمة ترسل أسرارها المخيفة ؟وقد أضاء العلم الحياة ؟إنّ مثل هذا الطرح يذهب بعيدا ولا يصب في إشكالية الكتابة للطفل التي من أهدافها تنشيط الخيال وتصنع متعة المتخيل وتشجع الطفل على ابتكار عوالم ساحرة تشبع غرائزه الطفولية ،والطفل بطبيعة الحال ــ طفل المراحل المتقدمة ــ يدرك يقينا أن ما يتلقاه محض خيال مجانب للحقيقة،وأنّ العجائبي والسحري هو عالم ابتكره خيال الكبار.بل إن الطفل لا يحبذ الخوض في صحة أو كذب ما يتلقى،فقط يكتفي بالتلذذ والتمتع بما يقرأ أو يشاهد.بل هناك من يرى في العجائبي والأسطوري علاجا وتربية لابد منها ،فالأسطورة"أو قصص الجنيات الخيالية تفسر أو تحل المتناقضات التي يراها الطفل حوله،وتعطيه ثقة في قدرته على التعامل مع الواقع.مازال لدينا الخير والشر،والطفل بحاجة إلى الأسطورة لتعطيه مخططا أوليا للتصرف والسلوك ولتقوية خياله..."[24]

لن يستطيع كاتب أدب الطفل أن يبدع قصة يتوجه بها للطفل المتلقي إلاّ إذا كان مسكونا بأسرار الطفل،ومشاعره الطفولية بصدق،لقد أبدع "لويس كارول" أسطورته "أليس في بلاد العجائب"لأنه أحب بشكل عجيب الطفلة "أليس ليدل Alice Liddel"والتي ألهمته كتابة رواية ملحمته تلك.يقول "لويس كارول" في مقدمة عمله ذاك:"أولئك الذين يعتبرون أنّ عقل الطفلة هو كتاب مغلق،ولا يرون الألوهية في ابتسامة طفل، سيقرأون هذه الكلمات بلاجدوى بينما أولئك الذين أحبوا أحيانا طفلة حقيقية لا يحتاجون إلى الكلمات (لتوضيح شيء)"[25]

وهكذا يوضح "لويس كارول" الدافع النفسي والشخصي الذي كان سببا في كتابته لمنجزه السردي "أليس في بلاد العجائب"إنه حبه العجيب والقوي للطفلة "أليس" ومع ذلك جاء منجزه السردي المؤسس على شبكة من الألغاز العلمية واللغوية والفلسفية ،حتى وُسم بـــ"فن التفكير"[26]

بل هو مشروع للتفكير وإمعان العقل في تلك الأسئلة التي ظاهرها فكاهة ومرح وباطنها حقائق علمية وفكرية.

---

[23]ــ عميش عبدالقادر: قصة الطفل في الجزائر،دراسة في الخصائص والمضامين. دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع.الجزائر.ط2. 2012. ص:210

[24]ــ جوان آيكن:مهارت الكتابة للأطفال. المرجع السابق.ص:174/173

[25]ــ سيسيليا ميرايل :مشكلات الأدب الطفلي. المرجع السابق .ص:107

[26]ــ سيسيليا ميرايل:المرجع نفسه,ص:104